الحرف اليدوية في المغرب الأوسط
«تلمسان نموذجا»

أ/ إلياس حاج عيسى
قسم التاريخ- جامعة الجزائر 2

تقديم :

أتطرق من خلال مداخلتي هذه ، إلى دراسة جوانب من تاريخ الحرف ببلاد المغرب الأوسط، مع التركيز أكثر على مدينة تلمسان في العهد الزياني. ولتناول هذا الموضوع ارتأيت تقسيم المداخلة إلى أربعة عناصر أساسية، هي:

1- التعريف بالحرف والصنائع والمهن، من خلال مصادر معينة. والتركيز على إشكالية المصطلح، والعلاقة بين المفردات الثلاثة. فهل لكل مفرد تعريف خاص، أم أنها مفردات تعبر عن مفهوم واحد.

2- نبذة عن الحرف في المغرب الأوسط، في عهدي الدولتين الرستمية والحمادية. فمن خلال هذا العنصر نتعرف على الحرف المنتشرة في المغرب الأوسط، أثناء حكم الرستميين، والحماديين

3- طرق تنظيم الحرف في مدينة تلمسان، ومن خلاله نرى كيف كان التنظيم العمراني يراعي المصلحة العامة للمجتمع التلمساني، كما نتطرق إلى ذكر بعض الحرف التي كانت موجودة في تلمسان، وتعريفها.

4- الحرفيون التلمسانيون، وقد صنفتهم إلى أربع فئات، اعتبرتهم أهم العناصر المحركة لفن الحرف، وهم:

أ- أرباب الحرف، ب- الحرفيون الأجراء، ج- الأندلسيون، د- اليهود.

الحرف، والصنائع، والمهن. إشكالية المصطلح

يورد صاحب كتاب الدلالات السمعية، بابا في معنى الحرفة والصناعة والعمالة. فيعرف الحرفة قائلا: "**حَرَفَ لأهله يَحْرِفُ، كسب وطلب واحتال**". وهو الذي: "**يكسب من ههنا وههنا مثل يَغْرِفُ**". ويعرفها في موضع آخر بالقول: "**المحترف: الصانع، و حرفة الرجل: صَنعته**".[1]

وعن الصناعة يقول أنها : "**حرفة الصانع، والصانع هو عامل الشيء، والصناعة حرفته**» و«**رجل صنيع اليدين وصنع اليدين أيضا: أي صانع حاذق، وامرأة صناع اليدين أي حاذقة ماهرة**".[2]

في حين نجد ابن خلدون يخصص فصولا عديدة في مقدمته للصنائع دون الحرف، وكأنه يريد أن يوحد المصطلح. وهي حسبه تنقسم إلى:

حرف ضرورية، وأخرى شريفة. فأما الضروري كالفلاحة، والبناء، والخياطة، والنجارة، والحياكة. وأما الشريفة بالموضوع فكالتوليد، والكتابة، والوراقة، والغناء، والطب. [1]

كما شرح إخوان الصفا في رسائلهم، التقنيات المستعملة في مباشرة كل حرفة أو صنعة، فقالوا أن كل صانع لا بد له من أداة ، و آلة يستعملها في صنعته. والفرق بين الآلة والأداة أن الآلة هي اليد والأصابع والرجل والرأس والعين، وبالجملة أعضاء الجسد، وأما الأداة ما كان خارجا عن ذات الصانع كفأس النجار، ومطرقة الحداد، وإبرة الخياط، وقلم الكاتب، وشفرة الإسكاف، وموس المزين، وما إلى ذلك من الأدوات التي يستعملها الصناع في صنائعهم، ولا تتم صناعاتهم إلا بها.[3]

ونجد من المؤرخين المحدثين من يذكر الحرف، والمهن، والصناعات دون أن يقدم لنا أوجه الشبه والاختلاف بينها.[4]

وحديثا أعلنت مكتبة الملك عبد العزيز العـــامة في الرياض، أنها تحوز على نسخة وحيدة من مخطوطة عنوانها "**بدائع أهل الشـــرف في آداب أهل الصنائع والحرف**" وهي مخطوطة نادرة لمؤلفها جلال الدين السيوطي، المتـــوفى

سنـــة 1505م[6].

بالجملة هناك ذكر لمصطلحي الحرف والصنائع، بشكل مترادف.

الحرف في المغرب الأوسط الرستميين:

تبدو المعلومات شحيحة جدا، فيما يخص الحرف، في الدولة الرستمية، ماعدا بعض الإشارات المتناثرة في بعض المصادر، والتي من خلالها يمكن الوصول إلى استنتاجات ونتائج، قد لاترقى إلى درجة التأكيد. من ذلك مثلا ما أورده مؤرخ الدولة الرستمية، ابن الصغير قائلا عن إمامة أبي حاتم : "**وأنه لما مات أبو اليقظان قامت العوام وأهل الحرف، ومن لف لفهم، فقدموا ابنه أباحاتم بلا مشورة أحد من الناس، لا من القبائل ولا من غيرهم**"[7]. لم يحدد ابن الصغير أنواع الحرف، لكننا نعتبر أن مجرد إدراجهم كفئة مساهمة في تعيين الحاكم، دليل على انتشارها بكثرة في مدينة تيهرت أولا، وكذلك على قوة تأثيرها في تسيير شؤون الدولة الرستمية ثانيا. لكن الملاحظة الأهم، أن تأثيرهم كان مع العوام، وكان في زمن ضعفت فيه الدولة، واقترب وقت سقوطها. ولم يكن في عهد قوتها، كما لم تكن مساهمتهم في تعيين الحاكم، مع القبائل[8] (صاحبة التأثير المباشر في تعيين الحكام في المغرب الوسيط). هذا يبين لنا أنهم فئة أقرب إلى العوام، وأن تأثيرهم لم يظهر إلا عندما ضعفت الدولة، وزال تأثير القبيلة.

أما عن أنواع الحرف في عهد الدولة الرستمية فلا نستبعد أن نجد في تيهرت خاصة فئات من الحرفيين، كالنجارين، والحدادين، والخياطين، والطحانين، والدباغين، وغيرها من الحرف المشهورة آنذاك[9]. وحرف أخرى غيرها، خاصة أن المدينة قد استبحر عمرانها، وقصدها الناس من أمصار كثيرة. يقول ابن الصغير في هذا السياق : "**واتسعوا في البلد وتفسحوا فيها وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار**"[10].

ويقول في موضع متصل: "**ليس أحد يترل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في**

رعيته وأمانه على نفسه وماله، حتى لاترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين".[11]

كما ظهر في تيهرت التأثير الأندلسي بوجود عدد من الأندلسيين في المدينة، فقد ذكرت المصادر أن أندلسيا عاش في تيهرت، وكانت له دكان للخياطة[12]. مما يدل على أن هذه الفئة كان لها دور في دفع عجلة الصناعة والحرف في عاصمة الرستميين.

ومن الحرف البارزة في عهد الدولة الرستمية، ماكان متعلقا بالنشاط الفلاحي، كزراعة الأرض وتربية الماشية. فنستنتج وجود حرف تتعلق بصناعة وسائل الزراعة المختلفة، منها صناعة المحاريث والمناجل والفؤوس، وغيرها[13].

حرفة أخرى مرتبطة بتربية الماشية، هي صناعة الجلود، أو الدباغة، خاصة أن تيهرت بموقعها السهبي، كانت من المناطق التي تنتشر فيها تربية الماشية بكثرة. فمنها تصنع النعال، والسروج، وأوعية لحفظ التمور، وأكياس لحفظ مختلف المواد السائلة كالماء والحليب والسمن. وتصنع منه أنواع من الأفرشة، فهذا ابن الصغير يصف عبد الرحمن بن رستم في بيته، بأنه كان «**جالسا على حصير فوقه جلد**».[14] ومن أهم الحرف صناعة النسيج المعتمدة أساسا على الصوف، والذي كانت تنسج منه ملابس متنوعة. ومثل هذا النشاط كان يعتمد على آلات الغزل، مثل المناسج، والمغازل، وغيرها من الآلات التي كان يوفرها حرفيون يشتغلون في النجارة.[15]

ولأن تيهرت أنشأت في منطقة غابية، فإننا لا نستبعد وجود صناعة للخشب، بوجود فئة من النجارين كانوا يصنعون بعض الآلات والأدوات، مثل الصناديق الخشبية، والخزائن، والأبواب، وغيرها.[16] كما كان للدولة الرستمية شريط ساحلي فيه بعض الموانئ تبحر منها السفن والقوارب، وهي وسائل نقل ربما كانت تصنع على سواحل المغرب الأوسط، وربما كانت هذه الحرفة من

اختصاص الصناع الأندلسيين الذين كانت لهم الخبرة في هذا المجال، وكانوا ينتقلون بشكل مستمر بين سواحل العدوتين.تبقى أبرز حرفة خلفتها الفترة الرستمية، هي الصناعات الفخارية والخزفية،[17] إذ عثر الأثريون على قلل وصحون وكؤوس، وغيرها من الأواني المستعملة في المنازل والقصور، وهي تمتاز بزركشة قليلة وألوان محدودة، عكس مثيلاتها في القيروان وفاس.[18] مجملا، تبدو الحرف في العهد الرستمي بسيطة، تتماشى مع طبيعة المجتمع الزناتي القريب إلى البداوة. لكن الإشكال الآخر هو قلة المصادر التي تتناول تلك الفترة، مما يصعب علينا الوصول إلى نتائج أكثر، ضف إلى ذلك الحفريات التي توقفت منذ فترة طويلة. فبالعودة إليها يمكننا الكشف عن جوانب خفية من حضارة الرستميين.

الحماديين :

تبدو المعلومات حول الحرف في المغرب الأوسط على عهد الحماديين، متوفرة بشكل أفضل مقارنة بالعهد الرستمي، والسبب في اعتقادنا هو انتشار نوع جديد من المصادر، ألا وهي كتب الرحالة والجغرافيين الذي وصفوا لنا المنطقة في القرنين 5 و6 هـ/11 و 12م، وأهم المصادر التي تناولت إقليم المغرب الأوسط في هذه الفترة ، **كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد الله البكري**، وكتاب **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي. وكتاب الاستبصار في عجائب الأمصار لمؤلف مراكشي مجهول** عاش في القرن 6هـ/12م. هذه المصادر تقدم لنا معلومات عن بعض الثروات الباطنية الموجودة بالمغرب الأوسط في الفترة الوسيطة. فنجد مثلا في بونة، معدن الحديد بجبل يدوغ،[19] وبها كذلك الكثير من الخشب. وقرب مرماجنة جبل كبير، تقطع منه أحجار المطاحن، وهي مشهورة بجودتها في الطحن.[20] ومن المعادن الجص، يستخرج من قرية متوسة*، ومنها يحمل إلى بجاية عاصمة الحماديين.

أما عن الصنائع والحرف في عهد الدولة الحمادية، فإن بجاية عاصمة الدولة كان بها من الصناعات والصناع ماليس بكثير من البلاد، وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة. وفيها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرابي.

وفي مرسى الخرز صيد المرجان، وهو من أجود أنواع المرجان في الحوض الغربي للمتوسط، وصفته أنه شجر في قاع البحر يخرج أبيض اللون لينا، فإذا ضربه الهواء احمر وصار صلبا.[21]

كما قدم لنا البكري، إشارات قليلة، لكنها مهمة في تحديد أنواعا من الحرف كانت في المغرب الأوسط. من ذلك قوله أن ببلاد كتامة حجر اللازورد الجيد ومعادن النحاس والحديد،[22] ومن مظاهر حرفة الحدادة، ما وصف به مدينة طبنة، من أن بها سور عليه أبواب معظمها من الحديد،[23] وعن مدى قيمة الحرف في بعض المدن، ماذكره عن تيهرت، حيث ذكر أبوابها، من بينها باب يسمى باب المطاحن.[24]

وقد ذكر صاحب الاستبصار، أنه كانت لملوك صنهاجة عمائم مذهبة، يغالون في أثمانها، تصل العمامة الواحدة 500 دينار و600 دينار، وأزيد. وكانوا يعمموها بأتقن صنعة، ولهم صناع لذلك، يتقاضى الصانع الواحد على تعميم عمامة واحدة دينارين وأزيد. ولهم قوالب من عود في حوانيتهم تسمى الرؤوس، يعممون عليها تلك العمائم.[25]

وكانت القلعة عاصمة الحماديين الأولى مشهورة بجودة ورقة أكسيتها، والملابس الجميلة والأقمشة المزركشة.[26] وحديثا قام بها المستشرق الفرنسي جورج مارسي بأبحاث حول قطع من الفخار عثر عليها في بجاية، من خلالها استنتج أن الحماديين استعملوا الفخار لصنع الأواني، منها: صحونا كبيرة، وجرارا مزخرفة،[27] كما عثر الأثريون في القلعة على قطع عديدة من الفخار والخزف، من أنواع مختلفة.[28]

تنظيم الحرف في مدينة تلمسان :

لقد ألف أحد علماء تلمسان، وهو **أبو الحسن علي بن محمد المعروف بالخزاعي التلمساني**، كتابا سماه **الدلالات السمعية على ماكان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية**. وكان

هدفه من هذا التأليف، أن يعلم الولاة والعمال في الأمصار والأقاليم، أنهم مكلفون بالقيام بعمل شرعي كان يتولاه عامل من عمال النبي صلى الله عليه وسلم. لذلك يجب على العامل أن يتبع منهج الشرع في مراقبته للحرف والصنائع في إقليمه.[29]

لقد عرف العالم الاسلامي في الفترة الوسيطة نظام الطوائف الحرفية المتخصصة، بحيث تتجمع كل طائفة في مكان محدد وتتسمى بنوع الحرفة التي تمتهنها، أو التجارة التي تمارسها،[30] وهكذا كانت أسواق مدينة تلمسان مقسمة بين هذه الطوائف المختلفة، منها: العطارين، والقبابين، والاسكافيين، والسراجين، والنجارين، والدرازين، والحدادين، والدباغين، والصباغين.

وكانت معظم الصناعات بمدينة تلمسان موزعة على مختلف الساحات والأزقة،[31] وتكون في العادة متصلة بالأسواق، لكي يكون منتوج الحرفيين قريبا من مراكز التوزيع، في حين يوجد نوع آخر من الحرف تقتضي طبيعتها أن تكون خارج الأحياء السكنية، وربما بعيدا عن الأسوار، وهي الحرف التي تضر بالصحة العامة من المواد التي قد تثير الغبار أو الدخان أو الروائح الكريهة أو الضجيج،[32] كدباغة الجلود والصباغة، والحدادة. والأرحية كانت قرب الأودية، لأنها من الحرف التي تعتمد على الموارد المائية، فالعامل المتحكم في موقع كل حرفة، هو درجة الضرر الذي يمكن أن تلحقه بالساكنة.

عرفت تلمسان تواجد أسواق صغيرة تمتد بين الأحياء السكنية، زبائنه الرئيسيون سكان الأحياء، ويمكن للغرباء عن المدينة القادمون من القرى والأرياف أن يتزودوا بما يحتاجون إليه. تعرف هذه الأسواق بالسويقات، ويمكن القول أنه كان لكل حي سويقة خاصة به، فيها مجموعة من الحوانيت والدكاكين، بالإضافة إلى ورش صغيرة تنتشر على مشارف الأحياء، تنتج موادا مصنعة، منها المنسوجات، والأحذية، والأحزمة، والأثاث، وتجهيزات الخيل، والنجارة.[33]

وتتضح لنا قيمة الحرف أكثر في المجتمع التلمساني من خلال بعض المظاهر العمرانية للمدينة، من ذلك أن الإنتاج الحرفي كان يشغل حيزا عمرانيا قائما

بذاته. ففي تلمسان حي الإنتاج الحرفي قائم بذاته، يمكن تحديد معالمه، فهو يشغل مساحة محصورة بين الأحياء السكنية والأسوار الخارجية للمدينة. وكذلك نلاحظ أن بعض الحارات[34] سميت نسبة لحرفة معينة، كحارة باب الحديد أو حارة الصباغين.[35]

نشير بالمقابل، ومن خلال ما تورده كتب الحسبة والفقه والنوازل، إلى بعض المظاهر السلبية التي يتسبب فيها بعض الحرفيين في تعاملاتهم وسط مجتمعاتهم. وكمثال على ذلك نقدم ما رواه العقباني في كتابه «**تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر**» من تنوع في مظاهر المبادلات والسلع، وصور الغش والتدليس بأسواق الغرب الإسلامي؛ فمما كان يقوم به الخرازون أنهم كانوا يبسطون جلود البقر بالطرق، فيدوس فوقها المارة. ومن التجار من كان يوقف الدواب الحاملة للسلع، كالخشب والحطب، فيقع تضييق الممرات، كما أن من الدواب ما كانت تحمل الشوك الذي يمزق ثياب الآخرين. وهو ما يفهم منه، من جانب آخر، ما عانته الدواب من سوء معاملة وعدم الرفق بها من قبل بعض الحرفيين كحمَّالي الزرع والنقالين للحجارة والجص والخدمة من الرمالين.[36]

أنواع الحرف في تلمسان :

نذكر في هذه الفقرة بعض الحرف التي كانت موجودة في تلمسان، أثناء الفترة الزيانية. وهي كثيرة، منها:

العطارين، مفرده عطار، وهو المشتغل في العطور. **والسراجين**، مفرده سراج وهو الذي يقوم بتصنيع سروج البغال والأحصنة. **النجارين**، مفرده نجار وهو المشتغل بأعمال النجارة، وماله علاقة بتحويل الخشب، إلى مواد مصنعة كالخزائن والأبواب. **الخرازين**، مفرده الخراز وهو صانع الأحذية، والخرازة تكون حرفته. **الصفارين**، ومفرده الصفار، الذي يشتغل بصناعة الصفر وهو صنف من النحاس. **الحدادين**، مفرده حداد، وهو المشتغل بالحديد، وتصنيع أدوات حديدية منه، كالأبواب، والسيوف، والخناجر. **الدباغين**، مفرده دباغ، وهو المشتغل

بتحويل الجلود من مواد أولية إلى أجزاء وقطع جاهزة للتصنيع، كبعض الألبسة. **الصباغين**، مفرده صباغ، وهو المشتغل بصبغ الجلود، والأقمشة بألوان مختلفة، حسب الطلب والذوق.

ونجد حرفا أخرى في تلمسان تتعلق أساسا بتجهيز الجيش الزياني، كدار الصناعة التي شيدها السلطان أبوحمو موسى الثاني، وذلك سنة 766هـ/1365م، وصفها لنا يحي ابن خلدون، في كتابه بغية الرواد، بالقول: «**إن دار الصنعة السعيدة، تموج بالفعلة على اختلاف أصنافهم، وتباين لغاتهم وأديانهم، فمن دراق ورماح ودراع، ولجام ووشاء، وسراج وخباء ونجار وحداد، وصائغ ودباج وغير ذلك، فتصطك لأصواتهم وآلاتهم الأسماع، وتجار في أحكام صنائعهم الأذهان، وتقف دون بحرهم الهائل الأبصار، ثم تعرض قومتهم أصيلان كل يوم مصنوعاتهم فيه بين يدي الخليفة (السلطان) أيده الله.**»[37]

خاتمة :

يتبين من خلال ما سبق، أن الحرف والصنائع والمهن، كلها مصطلحات تستعمل في الغالب للاستدلال على مفهوم واحد، وهذا من خلال المصادر القديمة، التي عرفت هذا الفن، كابن خلدون، وإخوان الصفا، والخزاعي التلمساني، وغيرهم. لكن هناك دراسات حديثة تفصل بين الحرفة والصنعة والمهنة، باعتبار أن لكل واحدة منها وظيفة معينة. ورأينا أن من الباحثين من جعل الحرفي تاجرا بالضرورة. ومهما يكن من أمر فإنها تشكل مظهرا واحدا من مظاهر الفنون.

كما رأينا أن هذا الفن كانت بدايته في المغرب الأوسط محتشمة في عهد الدولة الرستمية، لأنها دولة قامت على عاتق قبائل زناتة البترية، المعروفة بتوجهها القبلي. فالصنائع في المغرب قليلة وغير مستحكمة، لأن البربر مثل العرب رسخوا في البداوة منذ حقب من السنين.[38]

وفي عهد الدولة الحمادية تطورت الحرف، باستقرار البربر وظهور مدن جديدة* وقدمت لنا المصادر الجغرافية، مثل البكري، والإدريسي، وصاحب كتاب

الاستبصار، معلومات مهمة عن بعض الحرف في المغرب الأوسط. ومثلما يقول ابن خلدون، فإن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها.[39]

ثم أصبحت للحرف قيمة أكبر، وللقائمين عليها شأنا، في عهد الدولة الزيانية، التي عمرت زهاء الثلاثة قرون. وهي مدة سمحت لقبائل زناتة بالاستقرار في تلمسان ومحيطها، واستبحر عمرانها، وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع، بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة[40]. لكن لم يكن لتلمسان أن تحقق ذلك الرقي الحضاري – في مجالات الفكر، والعمران، والاقتصاد، وكذلك الفنون كالحرف والصنائع والمهن – لولا تأثير عناصر أخرى عاشت وتأقلمت مع المجتمع التلمساني الزناتي، ونخص بالذكر العنصر الأندلسي، الذي يجمع المؤرخون على أن مساهمته في إنتاج الحضارة الزيانية كان عظيما. بالإضافة إلى العنصر اليهودي.

كما رأينا أن الحرف في تلمسان، كما في غيرها من المدن الاسلامية، تخضع لتخطيط عمراني صارم، بحيث نجد حرفا معينة قريبة من الدور والمناطق الآهلة بالسكان، وحرفا أخرى خارج الأسوار و على الأودية، وبعيدة عن التجمعات السكنية. ورأينا أن العامل المتحكم في ذلك، هو مدى الضرر الذي يمكن أن تلحقه الحرفة بالساكنة.

ختاما، نقول أن المجتمع التلمساني الوسيط، إذا اعتبرناه صورة مصغرة لمجتمع المغرب الأوسط خاصة، وللمجتمعات المغربية والاسلامية عامة، كان مجتمعا منتجا. فهل هو اليوم كذلك ؟

العناصر الحرفية في تلمسان :

يبدو أن فئة الحرفيين قد حققت لنفسها مكانة متميزة وسط المجتمع التلمساني، وربما كان من العوامل المتحكمة في ذلك، هو اهتمام السلاطين الزيانيين بالصناعة. فقد كان السلطان أبو حمو موسى الثاني يعتني بالحرف ويقدر أصحابها، وهو من وضعهم في مرتبة اجتماعية تلي مرتبة الأشراف والفقهاء مباشرة، عند

جلوسه لاستقبال مختلف فئات المجتمع التلمساني، في قصره بالمشور في يوم الجمعة من كل أسبوع[41]. كما قام بتشييد دار الصناعة سنة 766هـ/1365م، وهي دار كانت موجهة أساسا للصناعة الحربية، جلب لها الصناع والحرفيين من مختلف الأجناس، واللغات، والديانات[42]. وقد وصفها أحد المؤرخين المعاصرين لها بقوله: «**إن دار الصنعة السعيدة، تموج بالفعلة على اختلاف أصنافهم، وتباين لغاتهم وأديانهم، فمن دراق ورماح ودراع، ولجام ووشاء، وسراج وخباء ونجار، وحداد وصائغ ودباج وغير ذلك.**»[43] ومما يؤكد مكانة الحرفيين في المجتمع التلمساني، هو وصف حسن الوزان لهم بأنهم طبقة من علية القوم.

لكن هؤلاء الحرفيون تختلف مكانتهم الاجتماعية ، باختلاف وظائفهم . كما نجد فيهم أجناسا مختلفة. وهي عناصر وجدت في المجتمع التلمساني، نذكر منهم:

أرباب الحرف :

هم عادة، أرباب الحرف والقائمون على الورشات، وعرفاء الصنائع، وأمناء الحرف. تكون رواتبهم مرتفعة، والأرباح التي يتلقونها من أعمالهم عالية، فهم يعيشون حياة اليسر والرقي[44]. ونجد أن أحسن من يصفهم، الرحالة والجغرافي الحسن الوزان، حيث يقول عنهم: «**والصناع أناس أشداء يحيون حياة هادئة ممتعة، وينعمون بأوقات لراحتهم.**»[45] ويقول: «**ويلبس الصناع كذلك ثيابا لائقة، ولكنهم يضعون ثوبا قصيرا، وقليل منهم يضعون عمامة على الرأس.**»[46] ربما يقصد بالقلة التي تضع العمائم، أرباب الحرف وأمنائها.

وكانت المرأة التلمسانية الغنية الميسورة الحال، تمارس التجارة بنفسها، إذا لم تجد من تثق فيه. كما كانت تحتكر أعمالا متميزة، كالطرز على الحرير بالخيط المذهب والمفضض[47].

وكان عدد من علماء تلمسان يجعلون من قيامهم بالأنشطة الحرفية مصدرًا لمعيشتهم، فمنهم من كان يباشر حرفا بسيطة، ومنهم من كانت

حرفته أكثر شأنا وأكبر دخلا. فقد كان الأديب الشاعر أبو عبد الله بن خميس(ت707هـ/1308م) حرَفيًا بارعا في صنع الشمع . وبدوره احترف أبو العبّاس أحمد بن مرزوق(ت741هـ/1340م) حياكة الصوف بتلمسان. وبعد وفاة والد الفقيه الأصولي أحمد بن محمّد بن زكري(ت899هـ/1494م) أدخلته أمّه في طراز عند معلم ليتعلم الحياكة ، وبقي عنده حتى تعلم النسيج، وكانت أجرته في الطراز نصف دينار في كلّ شهر، وكانت للخطيب أبي زيد بن أبي العيش(كان حيّا ما بين681 \ 703هـ/1282\1303م) حانوتا بجانب المسجد الأعظم بتلمسان يتاجر فيه. كما جرت عادة الشيخ أحمد بن الحسن الغماري (ت874هـ/1470م) أن يخرج للجبال والأراضي التي ليست ملكا لأحد ، ويجعل حزمة من الحطب على ظهره ويأتي بها لسوق الحطب في تلمسان ليبيعه هناك.[48]

الحرفيون الأجراء :

إذا كان أرباب الحرف يعيشون حياة ميسورة وراقية، فإن الحرفيين والمستخدمين بالأجر اليومي كان دخلهم ضعيفا، فمنهم من يعمل ليسد حاجاته الأساسية في الحياة، ومنهم من كانت حياته أقرب إلى حالة الفقر والبؤس.[49] وغالبا ماكانت الحرف التي يعملون فيها تعتمد على القوة البدنية ، مقابل أجورا زهيدة، ومن الأعمال الأخرى، التي تعتبر في عرف المجتمع من الحرف المنحطة، صيانة قنوات المياه، وتطهيرها، وتنظيف الشوارع والأزقة، كما كان منهم من يقوم بالبناء والسقاية، والنقل، والحراسة في البيوت، والمصانع، والفنادق، والقصور.

كما كانت المرأة التلمسانية المنتمية إلى العائلات الفقيرة، تشتري ما أمكن لها من الصوف، على حسب قدرتها المالية، فتقوم بغسله، ومشطه، وغزله، ونسجه. ثم تقوم بتسويقه بالطريقة المتاحة لها.[50] وربما نجد منهن من يحترفن أصنافا معينة من التجارة، وذلك بأن تأخذ الواحدة منهن بضائع وسلع إلى المنازل عبر دروب المدينة، لعرضها على ربات البيوت. وتعرف الواحدة منهن بالسواقة.[51] ومن عادات نساء تلمسان التضامن الحِرَفي؛ وذلك باجتماعهن في مجمع يسمونه التويزة؛ يغزلن عند

امرأة واحدة في مترلها ما تدعوهن لغزله من كتان أو صوفٍ.[52]

تبدو الحالة العامة للعمال اقتصادياً على الأغلب متواضعة، وتكفي ضرورات الحياة المعيشية فقط، واستمرت متفقة مع القول المأثور «**صنعة في اليد أمان من الفقر، وأمان من الغنى**» ولهذا كان الأجراء من أهل الحرف في عداد العامة أو الفئات الدنيا في المجتمع الإسلامي.

الأندلسيون :

ازداد التأثير الثقافي الأندلسي على حواضر بلاد المغرب، بعد توافد المهاجرين الأندلسيين على السواحل الجنوبية للمتوسط، بعد ازدياد حركة الاسترداد الاسبانية في الأندلس واضطهاد المسلمين واليهود، فأقبلت أفواج كبيرة منهم فكان منهم العلماء الذين نقلوا علومهم ومصنفاتهم، وكذا أصحاب الحرف والصنائع وقد ساهموا جميعهم بشكل كبير في إثراء الحياة الثقافية بحواضر المغرب، وجلبوا عاداتهم وعلومهم وفنونهم ولقنوها للمغاربة و قد برزت واضحة من خلال المنشآت الدينية والتعليمية التي حملت الكثير من الفن الأندلسي،[53] وشهدت تلمسان بدورها قدوم كثير من العلماء والكتاب والتجار والصناع الأندلسيين عليها، واستقرارهم بها، وساهم كثير منهم في تشييد مباني الدولة الزيانية، وإثرائها معماريا وفنيا، وإنمائها اقتصاديا.[54]

فالمستوى الحضاري الذي بلغته مدينة تلمسان، خصوصا في العهد الزياني، كان بفضل مساهمة الأندلسيين الذين برعوا في بناء القصور الأنيقة، واغتراس الرياض والمنتزهات على ضفتي وادي الوريط. وفي المجال الصناعي أضاف الأندلسيون كثيرا للخبرة التلمسانية بفضل تحكمهم في التقنية الصناعية التي تطورت في مدن بلنسية، وإشبيلية، وسرقسطة، ومارِدة. فأقاموا الورشات والمصانع الصغيرة للنجارة، والحدادة، والخياطة، والمعدات العسكرية، وطرز الملابس الجلدية والقطنية والحريرية، وصناعة الأثاث، والنقش على الأبواب، وصناعة الذهب والمجوهرات، وأدوات الفلاحة، وقنوات المياه.[55]

ومن مظاهر التأثير الأندلسي على تلمسان ماقام به أبو تاشفين الأول، الذي قدم طلبا إلى السلطان أبي الوليد، ملك غرناطة، ليرسل له بنائين وصناع أندلسيين.[56] فاشتهرت قصوره، وخاصة منها دار الملك، ودار السرور، وأبوفهر.[57]

لقد ساهم الأندلسيون المسلمون والنصارى في تطوير الصناعات التقليدية التلمسانية، بقسط وافر، إلى جانب العناصر المحلية[58].

اليهود :

كثيرا ما يطلق اليهود على مدينة تلمسان اسم «قدس شمال إفريقيا»[59] لما لها من أهمية في تاريخهم ببلاد المغرب، من حيث الكثافة البشرية، والنشاط الاقتصادي، والأماكن المقدسة. وقد تكاثر عدد اليهود في المغرب الأوسط منذ سنة 793هـ/1391م، عندما اضطهدهم الإسبان في الأندلس، فأصبح اليهود في تلمسان صنفان، القادمون من الأندلس[60]، وآخرون من أهل البلد.[61] وكان أحد السلاطين الزيانيين قد منح لهم قطعة أرض لا تبعد عن المشور إلا بمسافة قصيرة، فأصبح هذا الحي السكني جديدا، باعتبار أن اليهود كانوا يسكنون من قبل في حي أكادير.

أما عن نشاطهم الاقتصادي في مدينة تلمسان، فقد كانوا يشتغلون بالتجارة الخارجية إلى جانب الحرف اليدوية، كما كانوا يقومون بدور الوساطة بين تجار تلمسان وتجار أرغونة، وعرف التجار اليهود أنهم أكثر الناس اشتغالا بالذهب، كما عملوا في الفضة والصيرفة. ومن السلع الأخرى التي كانوا يتاجرون بها، الأسلحة والتوابل والحرير والعبيد.[62]

الهوامش :

1 – الخزاعي التلمساني (أبو الحسن علي بن محمد)، مختصر الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، إعداد أحمد مبارك البغدادي، مكتبة السندس، 1990، ص364.

2 – الخزاعي، المصدر السابق، ص.364.

3 – عبد الرحمن بن محمد (ابن خلدون)، مقدمة ابن خلدون، تصحيح وفهرسة: أبو عبد الله السعيد المندوه، ج2، مؤسسة الكتب الثقافية، ط3، بيروت–لبنان، د.ت، ص84.

4 – إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا، طبعة إلكترونية، ص107.

5 – يورد الدكتور عبد العزي فيلالي، في كتابه تلمسان في العهد الزياني، فصلا حول فئة الصناع وأصحاب الحرف، يقول فيه أن أصحاب الحرف، وأصحاب المهن، والصناعات في مدينة تلمسان، يكسبون اموالا كثيرة. أنظر: عبد العزيز فيلالي، تلمكسان في العهد الزياني، ج1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ص223.

6 – ويحاكي السيوطي في هذا الكتاب اللهجات العامية التي كان يستخدمها أرباب الحرف في زمانه، واعتمد في كتابتها أسلوب المقامات الأدبية، من خلال استنطاق كل صاحب حرفة أو مهنة بالمفردات المستخدمة في حرفته. من موقع شبرقة الإلكترونية shibreqah.net.

7 – ابن الصغير (القرن الثالث الهجري)، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق وتعليق: دكتور محمد ناصر، الأستاذ إبراهيم بحاز، المطبوعات الجميلة، الجزائر، د.ت، ص.89.

8 – يرى ابن خلدون في مقدمته، أن الملك والدولة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية، فبهذه العصبية يكون تمهيد الدولة وحمايتها، أنظر: ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)، مقدمة ابن خلدون (وهي الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر)، تصحيح وفهرسة: أبو عبد الله السعيد المندوه، الطبعة الثالثة، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت، لبنان، د.ت، ص165.

9 – بحاز إبراهيم بكير، الدولة الرستمية (160 – 296هـ/777 – 909م) دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ط2. 1414هـ/1993م، نشر جمعية التراث، القرارة، الجزائر، ص164.

10 – ابن الصغير، نفس المصدر، ص31.

11 – ابن الصغير، نفسه، ص32.

12 – بحاز، المرجع السابق، ص165.

13 – بحاز، نفس المرجع، ص165.

14 – ابن الصغير، المدر السابق، ص29.

15 – بحاز، نفسه، ص167 و169.

16 – نفسه، ص169.

17 – عثر جورج مارسيه ودوسوس لامار (Marçais G. et Lamare D.) بين اطلال تيهرت، سنة 1941م على أواني فخارية وخزفية، واستنتجا أنه كانت في المدينة أفران ومعامل لصناعة الفخار. أنظر: بحاز، نفسه، ص171.

18 –بحاز، المرجع السابق، ص171.

19 – الإدريسي، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، حققه ونقله إلى الفرنسية محمد الحاج صادق. opu–publisud, 1983 ص154. وانظر كذلك المقدسي المعروف بالبشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة – مصر، ط3! 1991م، ص226.

20 – الإدريسي، نفس المصدر، ص156.

* – قرية كانت بين مدينة بجاية وجيجل. أنظر الإدريسي، نفسه، ص125.

21 – يصفه الإدريسي تارة بأنه معدن، وتارة أخرى بأنه نبات. لكنه في الأصل يعتبر نباتا بحريا، أنظر: الإدريسي، المدر السابق، ص153. ابن سعيد المغربي (أبو الحسن علي ابن موسى)، كتاب الجغرافيا، حققه ووضع مقدمته وعلق

عليه إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط1. 1970م، ص143.
المقدسي، المصدر السابق، ص226.
22 - البكري (أبو عبيد)، كتاب المسالك والممالك، ج2، حققه وقدم له وفهرسه: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، 1992م، ص688.
23 - البكري، نفس المصدر، ص712.
24 -البكري، نفسه، ص733.
25 - مجهول (كاتب مراكشي من كتاب القرن 6هـ)، كتاب الاستبصار في عجائب الأمار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد - العراق، 1986م، ص129. ويرى الباحث رشيد بورويبة، أن العمائم تشبه العمائم الفاطمية، التي استعملها الخلفاء الفاطميون أثناء حكمهم، في بلاد المغرب ومصر. وقد وصفها المقريزي في خططه، كما أنها (العمائم الفاطمية) صورت ورسمت على قطع من الخزف ونقشت على ألواح من الخشب، وهي معروضة في المتحف الإسلامي بالقاهرة. أنظر رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1977م، ص137.
26 - بورويبة، نفس المرجع، ص139.
27 - بورويبة، نفسه، ص274.
28 - نفسه، ص276.
29 - أبو الحسن علي بن محمد المعروف بالخزاعي التلمساني، مختصر الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعملات الشرعية، إعداد أحمد مبارك البغدادي، مكتبة السندس، ط1. 1990م، ص ب.
30 - يذهب الدكتور عبد العزيز فيلالي إلىأن أحاب الحرف هم تجار في نفس الوقت. ونرى أن الدكتور محق باعتبار أم منتوج الحرفيين كله موجه للبيع. والراجح أنه نسبة من الحرفيين تمارسالتجارة بنفسها، فتبيع للزبون مباشرة كفئة العطارين والحدادين والنجارين، لكن بالمقابل هناك حرف أخرى يحتاج فيها الحرفي إلى فئة التجار لكي تصل سلعته إلى الزبون، كالصباغين والدباغين. للاستزادة أكثر حول فئات المجتمع التلمساني، أنظر: عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ابتداء من ص210.
31 - فيلالي، نفس المرجع، ص220.
32 - كانت أسواق تلمسان مفتوحة على أنواع من السلع، إلا ما تعارض منها مع الصحة العامة وأمن البلاد. أنظر: لعرج عبد العزيز، تلمسان عمرانها وعمارتها الدينية، مجلة الوعي، العدد (3 - 4) 2011م، ص28.
33 - لعرج عبد العزيز، المرجع السابق، ص29.
34 - وتسمى الحومات بالتعبير الشعبي المغاربي. أنظر: لعرج، نفس المرجع، ص29.
35 - لعرج، نفسه، ص29.
36 - سعيد بن حمادة، جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية بالمغرب الإسلامي من خلال "تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر" للعقباني، مقال من الأنترنيت، ص4.
37 - فيلالي، المرجع السابق، ص221.
38 - ابن خلدون، المصدر السابق، ص73.
*- ظهرت مدن في الغرب الأوسط، قام ببنائها قبائل صنهاجة، منها الجزائر، المدية، مليانة، أير، والقلعة، وبجاية.
39 - ابن خلدون، المصدر السابق، ص.70.
40 - نفس المصدر، ص69.
41 - عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص221.
42 -فيلالي، المرجع السابق، ص221.
43 - نفس المرجع، ص221.

44 – نفسه، ص222.

45 – ابن الوزان الزياني، وصف إفريقيا، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005م، ص391.

46 – ابن الوزان، نفس المصدر، ص392.

47 – فيلالي، المرجع السابق، ص223. كما كانت حرفةُ طرز الملابس بخيوط الذهب، والفضة، والنقش على الحصر، تعد مظهرا حضاريا متطورا يدل على ذوق أصحابه الفني الرفيع، ويعبر عن أناقة في المظهر تعدّت الخلفاء إلى مواليهم، وعبيدهم، وأسراهم. وكان للأرقاء الفضل في ازدهارها، فساهموا بذلك في تطوير الذوق الجمالي الخاص باللباس، والانقة، وتعدّى الأمر إلى الحصر الخاصة بفرش القصور، والخاصة بالصلاة. أنظر: بشاري لطيفة، الرّق في بلاد المغرب من الفتح إلى رحيل الفاطميين (ق1 – 4هـ/ 7 – 10م)، أطروحة دكتوراة دولة في التاريخ الوسيط (مرقونة)، 2007 – 2008م، ص361.

48 – نبيل شريخي، دورُ علماء تلمسان في الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (14 و15م)، رسالة ماجستير في تاريخ المشرق والمغرب في العصر الإسلامي، 2009 – 2010م، ص124.

49 – فيلالي، المرجع السابق، ص222.

50 – نفس المرجع، ص222.

51 – فيلالي، المرجع السابق، ص223.

52 – سعيد بن حمادة، المرجع السابق، ص4.

53 – مبخوت بودواية / هوارية بكاي، العلاقات الثقافية بين الدولتين الزيانية والمرينية خلال القرنيين 7 – 9 هجريين، مجلة الفسطاط التاريخية (مجلة إلكترونية).

54 – عبد الحميد حاجيات، العلاقات بين تلمسان وغرناطة، مجلة الوعي، العدد المزدوج (3 – 4)، أفريل–ماي 2011م، ص75.

55 – جمال يحياوي، آثار الهجرة الأندلسية على تلمسان، مجلة الوعي، العدد المزدوج (3 – 4)، أفريل–ماي 2011م، ص93.

56 – عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م، ص61.

57 – تعتبر هذه القصور مجهولة، لأن المصادر لم تشر إلى موقعها، واكتفت بوصف حسنها وجمالها، كما نجد ذلك عند الأخوين ابن خلدون. ولقد خربها المرينيون عندما أغاروا على تلمسان سنة 786هـ. للتوسع أكثر حول آثار أبو حمو موسى أنظر: حاجيات، نفس المرجع، ص61.

58 – حاجيات، العلاقات بين تلمسان وغرناطة، ص75.

59 – مصطفى ابن حموش، يهود الأندلس في تلمسان قصة النزوح والإقامة، مجلة الوعي، العدد المزدوج (3 – 4)، أفريل – ماي 2011م، ص174.

60 – لطيفة بشاري، مكانة تلمسان التجارية في العهد الزياني، مجلة دراسات تراثية، يصدرها مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط، جامعة الجزائر، العدد 01، السنة 2007م، ص26.

61 – يرى أحد الباحثين أن اليهود القادمين من الأندلس شكلوا الطبقة العليا والنافذة، في حين بقي اليهود القدامى مستضعفين، يزاولون حرفا متواضعة. ويرى أن رئاسة اليهود في تلمسان وفي مدن بلاد المغرب المتواجدين فيها، كانت تنتهي إلى الصنف الأول. أنظر: مصطفى ابن حموش، نفس المرجع، ص175.

62 – لطيفة بشاري، مكانة تلمسان التجارية في العهد الزياني، ص27.

==00==